المحور: التعليم والعلماء.

المحاضرة-هجرة العلماء:

الهجرة هي الخروج من أرض إلى أخرى، وهي أيضا انتقال الأفراد من مكان إلى آخر سعيا وراء الرزق، ويقال هاجر، أي ترك وطنه، وهاجر من مكان كذا أو عنه، أي تركه وخرج منه إلى غيره، وهاجر القوم، أي هجرهم وانتقل إلى آخرين [1]، وهجرة العلماء تكون داخلية حيث ينتقل بعضهم من مدينة إلى أخرى طلبا للعلم أو الوظيف، ومن قرية إلى مدينة حيث الثقافة أكثر انتشارا، أو من المدينة إلى الريف للفرار من أوضاع معينة، أما الخارجية، فهي هجرة العلماء إلى خارج القطر الجزائري إما للحج أو لطلب العلم وغيره، وسيكون حديثنا هنا عن هجرة العلماء إلى الخارج، والتي تعددت أسبابها إلى عوامل سياسية واقتصادية ودينية وعلمية [2]، ويمكن أن نقسم الوجهات التي قصدها العلماء الجزائريون خلال العهد العثماني إلى قسمين، القسم الأول يتعلق ببلاد المشرق، والقسم الثاني يتعلق ببلاد المغرب.

أ-الرحلات إلى بلاد المشرق:

1-الرحلات الحجازية: اهتم العلماء الجزائريون اهتماما كبيرا بتدوين خواطرهم إبان رحلاتهم إلى الحجاز للحج والزيارة، لمحبتهم له ذه الأماكن المقدسة، ولما تحتله من مكانة سامية في قلوب المسلمين، وتمثل الرحلات معلما بارزا في أدب الرحلة لدى علماء الجزائر خلال الفترة العثمانية، حيث ترك العهد العثماني في الجزائر عدة رحلات حجازية كتبها أصحابها بعد آدائهم لفريضة الحج، والمعروف أن الجزائريين

---

[1] مسعود بقادي **‹‹ هجرة علماء تلمسان إلى فاس ودورها الثقافي في الجزائر والمغرب خلال القرن 10هـ/16م››** مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2014/2013م، ص.83.

[2] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص.423.

الذين توجهوا إلى الجزيرة العربية خلال الفترة العثمانية لم يذهبوا إليها كجغرافيين أو مؤرخين أو سواح، وإنما توجهوا إليها حجاجا يؤدون الفريضة ويزورون الحرمين الشريفين[1].

قام بعض العلماء الجزائريون برحلات عديدة إلى بلاد الحجاز، منها الرحلات الشعرية كقصيدة عبد الله بن عمر البسكري وقصيدة محمد بن محمد بن منصور العامري التلمساني(ت1748م)، وقصيدة عبد الرحمان بن محمد بن الخروب المحاجي(ت1652م)، أما من الرحلات الحجازية النثرية فلا بد من ذكر رحلة أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني المسماة (الروضة الشهية في الرحلة الحجازية) والتي قام بها سنة 1762م، ولم يقع العثور عليها، وفي نفس الفترة تقريبا قام ابن عمار بتدوين رحلته المسماة (نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب) والتي لم يبق منها إلا المقدمة[2].

لكن من أهم رحلات الجزائريين الحجازية يمكن أن نذكر رحلة الحسين الورثلاني، والمسماة بـ(نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، إذ تعتبر موسوعة أخبار عن جزء كبير من العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر للهجرة(18م)، وقد اعتنت رحلة الورثلاني بالوصف الجغرافي والسرد التاريخي، الخاصين بالبلاد العربية (الحجاز)، وتصور أهمية رحلته إلى ما اشتملت عليه من معلومات في غاية الأهمية تتصل بالحياة اليومية والحالة الاقتصادية والمعاشية وأسلوب الحكم ومستوى الثقافة وطبيعة العادات ونوعية اهتمامات العامة في البلدان التي تعرف عليها في سفره أو أثناء إقامته بالحجاز، وهي حسب خط رحلته ذهابا، مجانة، زمورة، بسكرة، سيدي

---

[1] هلايلي، **أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، ص.214.

[2] الأرقش وآخرون، **المغرب العربي الحديث من خلال المصادر**، ص ص.291-292.

عقبة، أولاد سيدي ناجي، نفطة، الحامة، توزر، زواوة، طرابلس، زليتن، مصراته، بلاد سرت، برقة، الإسكندرية والقاهرة، والمدينة ومكة[1].

أدى الورثلاني فريضة الحج ثلاث مرات، وقد أتاحت له هذه الرحلات أن يوسع ثقافته، ومداركه وتجاربه، وينمي معلوماته أثناء حجه وإقامته بالحجاز ومصر، حيث أخذ على شيوخ الأزهر أمثال محمد البليدي، والحفناوي والجوهري وخليل الأزهري، وتعتبر رحلة الورثلاني من المصادر الأساسية التي لا يمكن الاستغناء عنها للتعرف على أوضاع الجزائر وتونس وليبيا ومصر والحجاز في القرن الثاني عشر للهجرة(18م)، فهي تسجيل للوضع الاجتماعي والاقتصادي و وصف دقيق لحالة المسالك والعمران ومحطات القوافل ونقاط الماء، وصورة صادقة للواقع الثقافي والفكري، ولعل أهم ما يتميز به الورثلاني في هذا الجانب هو ترجمته للعديد من صلحاء وعلماء ومشائخ وطنه، وتتصف رحلة الورثلاني بالالتزام بالصدق في كل ما أورده من أحداث في رحلته، وتحري الحقيقة التاريخية مع الإشارة إلى مصدرها، والتحلي بالورع والتقوى، والتزامه بأسلوب المحسنات والاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي[2].

ومن أشهر الرحلات الحجازية للعلماء الجزائريين لا بد من ذكر رحلة أبو راس الناصري(1737/1823م)، حيث دون الناصري في كتابه(فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته) العديد من الأخبار المتعلقة بمشائخه وبالحياة العلمية والدينية في الشرق العربي ومغربه[3]، وقد انتقل إلى العديد من الأقطار، وتعرف على أوضاعها واتصل بعلمائها، وحج مرتين، الأولى عام 1204هـ/1790م، والثانية سنة

---

[1] هلايلي، **أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، ص.216.

[2] نفسه، ص ص.17-18.

[3] الأرقش وآخرون، **مرجع سابق**، ص.292.

1226هـ/1812م، وزار تونس ومصر وبلاد الشام والمغرب، كما عرف برحلته إلى الحجاز[1].

والواقع أن رحلة أبي راس الناصري تختلف عن رحلة الورثلاني، رغم تناول موضوع الرحلة إلى الحجاز، فهي تظهر علمية أكثر منها دينية، إذ اهتم الناصري بجانب العلم والعلماء [2]، حيث يقول: ‹‹ لقيت بها(مصر) العلماء الكبار، أهل العلم والأدب والأخبار، الإمام الأرض شيخنا السيد مرتض، ففاوضته في فنون، فوجدته كمالي فيه من الظنون، ورويت عنه أوائل الصحيحين، ورسالة القشيري، ومختصر العين، ومختصر الكنز الراقي، وأجازني بالباقي››[3].

وعندما دخل مكة المكرمة، قال: ‹‹...فاجتمعت بعلمائها وفقهائها، كالعلامة الدارك السيد عبد المالك...وكنت قرأت عليه نبذة من الحديث، ونبذة من الكنز، وشيئا من التفسير في سورة النور، وأجازني بالباقي... ››[4]، وفي مكة التقى أبو راس بالعلماء الوهابيين، دون أن يذكر واحدا منهم، وقال أنه تناظر معهم، وسجل أنه سئل في مكة عن أصل كل علم وسبب تدوينه، وفي المدينة عن العقائد[5].

2- الرحلات إلى مصر: زار مصر عدد لا بأس به من العلماء الجزائريين في العهد العثماني، ونذكر منهم على سبيل المثال عيسى الثعالبي ويحيى الشاوي [6]، أما علي بن محمد الجزائري، والمعروف بابن الترجمان(1130/1185هـ)، وهو من عائلة تنتمي إلى الشرف، وحصل كثيرا من العلوم، وممن أجازوه المنور التلمساني، فقد أقام

---

[1] هلايلي، **أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، ص.219.

[2] نفسه، ص.219.

[3] الناصري، **فتح الإله**، ص ص.115-116.

[4] نفسه، ص118.

[5] هلايلي، **أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، ص ص.219-220.

[6] الأرقش وآخرون، **مرجع سابق**، ص.295.

بمصر طويلا وبنى بها دارا حسنة قرب الأزهر، وكانت له بها مكانة خاصة لدى الأمير أحمد آغا، أمين دار ضرب السكة، فكان لا يفارقه وهو الذي أغدق عليه العطايا[1].

ومن العلماء الجزائريين الذين زاروا مصر أيضا، نذكر أحمد الجزائري(أبو عباس المغربي)، الذي كان من صحراء عمالة الجزائر، حيث دخل مصر صغيرا وتتلمذ على مشائخها، مثل علي الصعيدي، ثم أذن له في التدريس، فصار يقرئ الطلبة برواق المغاربة، وشاع أمره وذاعت أخباره لفصاحة لسانه وجودة تحفظه، وبعد آداء الحج سنة 1185هـ والمجاورة بالحرمين عاد إلى مصر، وأصبحت له فيها مكانة عالية، وعظم أمره حتى أشير إليه بالمشيخة في الرواق، ولكن البعض تعصب ضده، فلم يحصل له ذلك، وكل ما حصل عليه أحمد الجزائري هو نظارة المدرسة الجوهرية، وكان لذلاقة لسانه وكثرة أتباعه له خصوم أيضا، فقد قال عنه الجبرتي إنه كان يتّقى شره[2].

ب- الرحلات إلى المغرب الأقصى: إن معاملة الأتراك السيئة والحروب الداخلية التي عرفتها المملكة الزيانية في أخريات أيامها وعلاقتها بالإسبان في وهران وضغط بني وطاس عليها من الغرب والعثمانيين من الشرق قد جعل العلماء لا يشعرون بالراحة ولا بالجو الملائم والاجتهاد في الرأي والحياد السياسي، فما كان من العديد منهم إلا أن حمل أمتعته وأهله وترك البلاد جملة حتى يهدأ غبار الفتن والمعارك، ومن أشهر من هاجر في تلك الظروف أحمد الونشريسي صاحب المعيار، وقد كان وحده دائرة معارف فقدت البلاد بهجرته ركنا أساسيا من أركان الحياة العلمية[3]، واستقر بفاس إلى

---

[1] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص.429.

[2] نفسه، ص.430.

[3] نفسه، ص.424.

أن قتل بها سنة 1548م، فقد كان ضحية الصراعات السياسية بين الوطاسيين والسعديين[1].

وقد ذكر ابن مريم جملة من هؤلاء العلماء الذين هاجروا إلى المغرب، فهذا محمد بن مرزوق الخطيب، الذي دخل فاس وأجاز بها والذي كان حيا سنة 918هـ، وهذا أحمد الواعزاني الذي استوطن فاس وتوفي بها سنة 981هـ، وهذا محمد بن شقرون الوجديجي الذي نزل فاس وتولى الإفتاء في مراكش وأدركته الوفاة في فاس سنة 983هـ، وكذلك محمد بن عزوز الديلمي الذي انتقل من البادية إلى الحاضرة ثم قصد فاس حيث توفي، ونفس الشيء يقال عن محمد بن محمد العباسي الذي رحل إلى فاس، ولكن ابن مريم يقول إنه رجع بعد مدة[2].

وأكبر موجة من الهجرة نحو المغرب حدثت بعد فشل الحملة السعدية على تلمسان، فقد رافق السلطان السعدي عند عودته إلى بلاده كثير من العلماء الذين كانوا قد أيدوا تدخله في تلمسان، وكان ذلك حوالي سنة 968هـ، ومن الذين هاجروا في هذه الأثناء محمد بن أحمد المعروف بابن الوقاد التلمساني، الذي تولى عدة وظائف رسمية كالقضاء والإفتاء والتدريس في مدن مختلفة من المغرب كفاس ومكناس وتارودانت وسجلماسة، وقد أدركته الوفاة بتارودانت سنة 1001هـ[3].

ومن الذين كانوا ضحية هذه الأوضاع بين العثمانيين والسعديين محمد بن عبد الرحمان المغراوي المعروف بابن جلال، فقد ولد بتلمسان سنة 908هـ واشتهر بعلومه ومكانته وارتبط بالسلطان السعدي هناك، ولما حان وقت عودة السلطان إلى فاس رافقه ابن جلال إليها سنة 958هـ، فكان محظوظا لديه حتى قلده وظيفة الفتيا

---

[1] الأرقش وآخرون، **مرجع سابق**، ص.302.

[2] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص ص.424-425.

[3] نفسه، ص.425.

والتدريس والخطابة بجامع الأندلس ثم جامع القرويين، وظل في الموضعين أكثر من عشرين سنة، وقد أصبح ابن جلال عارفا بعلوم الوقت كالمنطق والفقه والعقائد والبيان والحديث والتفسير، وفي فاس أصبح له تلاميذ معترف لهم كأحمد المنجور صاحب الفهرس[1].

ولم يكن المقري صاحب (نفح الطيب) قد اشتهر أمره في تلمسان عندما هاجر إليها من فاس، ذلك أن شهرته العلمية قد بدأت أثناء وجوده بالمغرب ثم بالمشرق، وعلى كل حال فقد قصد هو أيضا فاس وتولى بها الوظائف وانغمس في حمأة السياسة حتى كادت تأتي عليه رياح الفتنة، وهناك عالمان كان لهما شأن عظيم في المغرب خلال هذا العهد، الأول محمد بن عبد الكريم الجزائري، والثاني محمد بن أحمد القسنطيني المعروف بابن الكماد، فابن عبد الكريم هاجر إلى فاس سنة 1083هـ، ولعل ذلك كان بإغراء من علماء السلطان إسماعيل، فقد قدم على هذا السلطان الذي أكرمه مرارا وكان يجله ويعظمه، ويبدو أن كفاءته العلمية هي التي مهدت له الطريق لدى السلطان، فقد قيل أنه كان حسن الحديث والمناظرة ممتع المجالسة، وأنه كان دائرة للأدب والتواريخ، وقد توفي ابن عبد الكريم في فاس سنة 1102هـ[2].

أما ابن الكماد(محمد بن أحمد القسنطيني)، فقد رحل من قسنطينة إلى المغرب، وهو من عائلة شهيرة بالعلم والشرف تولت القضاء والتدريس والإفتاء في قسنطينة جيلا بعد جيلا، فبعد أن درس ابن الكماد في زواوة على محمد المقري وفي العاصمة على محمد بن سعيد قدورة، قصد فاس التي كانت موئل العلماء، ولعلمه وفضله ازدحم الناس عليه ولاسيما عند تدريس الأصول على جمع الجوامع للسبكي، ولفت إليه ذلك نظر السلطان وارتفعت مرتبته لدى أرباب الدولة ونال حظوة كبيرة، وكان دؤوبا على

---

[1] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص.425.

[2] نفسه، ص ص.426-427.

المطالعة لا يراه الرائي إلا دارسا أو مطالعا أو مقرئا، وكان ابن الكماد متمكنا من علوم شتى كالمنطق والتوحيد والحديث والفقه وفروعه، وقد توفي سنة 1116هـ، وترك تلاميذ من أبرز علماء المغرب في وقتهم، مثل محمد بن عبد السلام البناني، وإدريس بن محمد المنجرة[1].

ج-الرحلات إلى تونس: يبدو أن جامع الزيتونة بالبلاد المغربية قد جذب إليه أعدادا هامة من العلماء الجزائريين، إذ تعج كتب التراجم بأسماء العلماء الجزائريين الذين درسوا بالزيتونة أو درّسوا بها، فيمكن التمييز في هذا المجال بين صنفين من العلماء الجزائريين، صنف أول خيّر البقاء في تونس والاندماج في فئة علمائها، وصنف ثان هاجر بصفة مؤقتة لطلب العلم ثم رجع لبث ما حصل عليه بالجزائر[2].

ومن العلماء الذين استقروا بالبلاد التونسية خلال العصور الحديثة يمكن أن نذكر الشيخ ساسي المقري بجامع الزيتونة، وأصله من نواحي جبال البربر (ت حوالي 1689م)، ومن علماء الجزائر خلال القرن السابع عشر نذكر كذلك الشيخ محمد الشريف الحمني، قدم إلى تونس سنة 1682م وتولى قضاء ماطر، ومنهم كذلك الشيخ محمد العنابي الضرير، ولد ببلد العناب سنة 1684م وقرأ بالجزائر، ثم انتقل إلى تونس[3].

وتواصل توافد العلماء الجزائريين على البلاد التونسية لطلب العلم بنفس النسق تقريبا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فقد هاجر إليها الشيخ القاضي أحمد العوادي، وينحدر من قبيلة العواودة بجهة قسنطينة، وقد تولى التدريس بالجامع الأعظم ثم تولى خطة القضاء بماطر (ت 1828م)، ومن بين المشائخ كذلك نذكر

---

[1] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص ص.427-428.

[2] الأرقش وآخرون، **مرجع سابق**، ص.303.

[3] نفسه، ص.303.

الشيخ الولي محمد الباشير وأصله من بلاد زواوة، وكان التدريس بتونس وقرأ عليه المؤرخ أحمد ابن أبي الضياف تفسير ابن الفرس، وقد توفي محمد الباشير بتونس سنة 1827م وبنيت على قبره زاوية[1].

[1] الأرقش وآخرون، **مرجع سابق**، ص ص.303-304.